نظرية الحتمية القيمية في الإعلام
والرؤية التوحيدية

لبجيري نور الدين
طالب دراسات عليا
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية -قسنطينة-

تعتمد رؤية الظواهر الإنسانية والاجتماعية على ما توصلت إليه المعرفة الإنسانية في عصر من العصور ، وبحكم قصور الإنسان عن فهم كل ظواهر الكون فقد لجأ إلى وضع تخمينات وفرضيات لفهم ظواهر وعلاقات لم يهتد إليها بما يمتلك من أدوات ومعارف وقوانين (سنن) تم اكتشافها سابقا ، هذا وإذا أضفنا إليه الرؤية الخاطئة التي قد تسود عصرا من العصور حول الكليات الكبرى : الإنسان-الكون – الخالق – المخلوقات الأخرى غير الإنسان – العلاقات التي تربط ذلك ..... ، أدركنا حجم الضبابية الذي قد يعتري الفهم الصحيح والسليم للظواهر ..وبحكم أن هذه النتيجة قد برزت بشكل واضح في عصرنا الحاضر فإن أسبابها قد تعود إلى:

- تعدد الرؤى بفعل تنوع المعارف عبر التخصصات المعرفية المختلفة ، وبالتالي تشتت السنن (القوانين) عبر سياقات قد لا تتفق والمحيط الصحيح والسياق الصحيح الذي من المفروض أن تنشأ فيه.

- غياب النظرة الكلية الصحيحة للعلم والمعرفة و أهدافهما .

ويمكن تشبيه السنن المكتشفة بالمواد الخام الخاصة ببناء منزل مثلا ، حيث أن هذه المواد لا تعطينا بناءا متكاملا بمجرد تجميعها كما لا يكتمل البناء بحرفي واحد ، بل يتطلب عمل البناء والنجار والصباغ والسباك ..كما أن اكتمال البناء لا يعني تحقق وظيفته ما لم ينظر إلى محيطه والعلاقات التي تحكم هذا المحيط (تناسق وتكامل المعارف المتوصل إليها عير التخصصات المعرفية) ...

وهنا تبرز محورية القيم في توجيه وإرصاء المعارف بعد اكتشاف السنن المنظمة لها ، إن هذه الورقة تهدف إلى التحسيس بضرورة العمل للوصول إلى قراءة توحيدية وذلك لفهم عمل السنن التي تحكم الظواهر الكونية والاجتماعية، مع توضيح علاقة نظرية الحتمية القيمية بهذه القراءة التوحيدية .

القراءة التوحيدية : كلمة التوحيدية تحمل معنى :

1- الوحدانية وعقيدتنا تنبني على توحيد الباري سبحانه وتعالى المتصف بصفات الكمال كلها الذي أوجد هذا الكون بمخلوقاته والذي أودع فيه سننا ثابتة " **سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا** " [1] وقوله تعالى أيضا " **سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا**"[2]

---

[1] -سورة الأحزاب: 62.

[2] -سورة الفتح: 23.

ثم إن الإنسان وبما زوده الله تعالى من أدوات المعرفة يمكنه اكتشاف هذه السنن (القوانين) ، لكن بحكم انقسام العالم إلى عالم الغيب وعالم الشهادة **" عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال"** [1] فإن أدواته لا تمكنه من كل ذلك ، وجاء الوحي ليفتح جزءا من هذا العالم بما يمكّن الإنسان من أداء دوره ووظيفته ، وبحكم أن مصدر الوحي هو الخالق سبحانه ، فإنه-الوحي – **وبما يحمل من أبعاد إدماجية** ، يسهل عملية القراءة والتتبع والاكتشاف والتحقق من صدق وثبات السنن ، حيث تستحضر في نصوص الوحي :

- البنية التكوينية للإنسان و أبعادها : بشر ، مخلوق متفرد بإمكاناته ، مستخلف ومكلف .
- البنية التكوينية للكون و أبعادها الزمانية (ماضي ومستقبل) والمكانية .
- العلاقات المستلزمة لفعل صحيح يحكم سلوكات الإنسان اتجاه خالقه ومخلوقاته جميعها .

وعليه **فهناك علاقة فهم متبادل للسنن بين الوحي و التخصصات المعرفية المختلفة**، فاكتشاف بعض السنن في الآفاق أو الأنفس والمجتمع يمكننا من فهم بعض السنن المودعة في الوحي (سنن الهداية) ،كما أن سنن الهداية تهدينا إلى الطريق الصحيح لفهم هذه السنن وتوظيفها التوظيف السليم ، لذلك فالوحدانية تستلزم عدم تناقض هذه القراءات بغض النظر عن المجال المعرفي الذي تولى ذلك .

2- القراءة الواحدة للوحدات الأولية للسنن . وقد يطرح السؤال ما المقصود بالوحدات الأولية للسنن ؟

فنشير في البداية إلى أن السنن التي تحكم نظام الكون وعلاقات الإنسان متناسقة متناغمة وبالتالي **فإن العلوم والمعارف تعرف في المنطلق نسقا واحدا** ،

---

[1] - سورة الرعد: 9.

وتحكم ذلك سننا واحدة ، نسميها بالوحدات الأولية للسنن ، وسميت بالأولية لأن السنن قابلة للتركيب بفعل تدخل الإنسان ، وإذا كان هذا واضحا جدا في عالم الآفاق فإنه في عالم الأنفس والمجتمع صعب الفهم ؛ فنحن نرى مثلا في عالم الآفاق كيف اكتشف الإنسان بعض المخترعات بتركيب سنن وقوانين مكتشفة سابقا، لكننا في الظواهر النفسية والاجتماعية (عالم الأنفس والمجتمع) ندرك ذلك بصعوبة ، ويمكن إعطاء مثال على هذا التركيب ببعض مستلزمات الإيمان والتي ذكرها القرآن فقد أشار إلى ما يسميه بعض الباحثين جمع المتناقضين مثل : الرجاء والخوف ، الرغبة والرهبة ...وفي الحقيقة أن المتناقضين لا يجمعان أبدا وإنما –والله أعلم –أن هذا منهج أراد القرآن تنبيهنا إليه وهو تركيب السنن في عالم الأنفس والمجتمع مثل تركيبها في عالم الآفاق فالنتيجة التي تظهر في إنسان يجمع الخوف والرجاء هي سنة مركبة عن وحدات السنن الأولية ، وهي سنة أخرى تختلف عن السنتين اللتين ركبت منهما ، وهي شبيهة بالماء الذي ينتج من اجتماع الأكسجين بالهيدروجين ، لكن الماء يختلف تماما عن الأكسجين والهيدروجين ، وكذلك الإنسان الذي يتركب فيه الخوف والرجاء هو شخص يختلف تماما عن الإنسان الخائف فقط ، كما أن هذا التركيب لا يتم إلا في ظروف معينة ...وعليه فإن القراءة الواحدة للوحدات الأولية للسنن مطلوبة لأن السنن المركبة تتدخل فيها إرادة الإنسان التي قد تتقيد بالقيم كما قد تبتعد عنها وبالتالي تظهر الشوائب على نواتج هذا التركيب ، لقد كان المسلمون الأوائل أكثر قدرة على إدراك وحدات السنن ، مما مكنهم من إعادة تركيب المشوه منها في إطاره الصحيح فقد استطاع المسلمون تطويع علم الفلك بعد أن كان محور علم الكهانة ، واستفرغوه من تلك السنن المركبة تركيبا تشوهيا والتي خرجت به عن وجهته الصحيحة ،

والأمر نفسه فعلوه في عالم العلاقات والأنفس حيث أجلوا شوائبه بفعل ما يحملونه من نصوص الوحي الواضحة .

إن أهم ما يمكن التوصل إليه في نظري هو اتفاق العلوم على وحدات السنن الأولية ، التي ستعيد ضبط المعارف بما يتفق واعتماد المركزية في قراءة وفهم الظواهر ، لكن **يبقى أهم عائق لذلك في نظري هو المعرفة العالمية التي تسود عصرا من العصور** والتي تركبت من سنن لانهائية قابلة للانفتاح والتجدد باستمرار في طريق ممتد وتفرعات لا نهائية ....وحتى العالم الإسلامي عان من هذه المشكلة في كل التخصصات المعرفية بما فيها تفسير بعض النصوص القرآنية ذات البعد العلمي والمعرفي ؛ حيث فسرت على ضوء ما يحمله الشارح من تصورات انطبعت كمسلمات بفعل ما يسود عصره من ثقافة ، ويمكن ملاحظة ذلك أيضا في العلوم الأخرى فقد اكتشف ابن خلدون سنن وقوانين تحكم نشوء وسقوط الحضارات مثل نظام الدورات الخاص بكل أمة ، لكن إسقاطاته لم تتعد حدود الواقع الذي يعيش فيه والزمن الذي أدركه [1] وهو أمر طبيعي بحكم أن المعرفة العالمية لكل عصر تأسر العلماء داخلها بشكل لا تبقي معه إلا بعض الفجوات والرؤى التي يرون منها بشكل غير واضح فيتركون لمن خلفهم بعض المعالم حول وجود طرق للوصول إلى سنن أخرى، أو يتركون علامات استفهام بفعل وجود تناقضات في تطبيق تلك السنن على وقائع رأو كأنها تستحق تطبيق السنة عليها ...

---

[1] - كتب مالك بن نبي يقول : "فقد كان يمكن أن يكون-ابن خلدون- أول من أتيح له أن يصوغ قانون الدورة التاريخية ، لولا أن مصطلح عصره قد وقف به عند ناتج معين من منتوجات الحضارة ونعني به الدولة .. "انظر شروط النهضة ، دار الفكر دمشق ط4: 1407هـ -1987م ، ص/69.

وقد يطرح السؤال كيف يمكن التقليل من هذا العائق ؟ وللإجابة عن هذا السؤال لا بد من إعادة التذكير بالعلاقة التي تربط هذه العلوم والمعارف والخيط الرابط بينها .

فالقيم هي الناظم الناسق بين هذه العلوم والمعارف ، وهي المعلم الثابت الذي يسمح لنا بالتحقق من صدق بعض النتائج[1] ، ذلك أن التناقض في العلوم والمعارف مرفوض بحكم القراءة التوحيدية كما مرّ ، وأي نتيجة تتوصل إليها الأبحاث وتكون متناقضة مع سنن وقوانين في تخصصات أخرى ينبغي طرحها على بساط البحث من جديد ، كما أن كل نتيجة قد تحدث قطيعة مع كليات التصور الكبرى كما حددتها القيم الحقة ينبغي إعادة طرحها من جديد على بساط البحث ، لأن القيم الحقة هي المعلم الذي نتحقق به من صدق نتائج أبحاثنا .

و القراءة التوحيدية تعطي للعلم والمعرفة الأبعاد الآتية :

- **الشمولية** في فهم وقراءة الظواهر ؛ سواء عند التشخيص أو التحليل أو تقديم الحلول، وذلك للقضاء على التجزيئية ، يكفي فقط أن ننظر إلى القراءات المختلفة للظواهر بناء على تعدد التخصصات المعرفية لندرك حجم الحاجة إلى القراءة التوحيدية.

- **العالمية** لأن السنن لا تختص بجنس دون جنس ولا بمكان دون آخر ، وبالتالي فاكتشاف هذه السنن من أية جهة يعد خيرا عظيما للبشرية ومكسبا كبيرا للعالم أجمع ، ولا يتطلب تخصيصه بتسميات معينة ليكتسب صفة العلمية والحقيقة .

- **الصدق والثبات** من خلال توظيف آلية التحقق باستمرار .

---

[1] - نصير بوعلي وآخرون : قراءات في نظرية الحتمية القيمية ، منشورات مكتبة اقرأ قسنطينة الجزائر ، ط1 ، 1430هـ/ 2009م ، ص / 113و 121.

- **الامتداد** عبر عوالم الزمن في فضاء رحب ومفتوح .

الحتمية القيمية رؤية توحيدية : بحكم أن الحتمية القيمية تنطلق من اعتماد وحدة وحيدة في التحليل وهي القيم[1] ، مع مركزة الفعل والتصور حول المنظومة القيمية فقط على اعتبار أن القيم إطار مرجعي وضابط منهجي ومنهج للسير والحركة إضافة إلى كونها عمل إجرائي هادف ومؤثر [2] ، مما يسمح بالتشخيص والوصف والتحليل وإصدار الأحكام وتقديم الحلول ، كما أن الرؤية القيمية توظف كل الأدوات التي زود بها الإنسان لإدراك واكتشاف العالم الذي يحيط به ويحيا فيه، فهي توظف أدوات الحس الظاهرة وأدوات الحس الباطنة ، وبالتالي فهي تعمل على حسن توظيف المناهج والأدوات للوصول إلى النتائج ؛ فإذا كان التشخيص والوصف يعتمد على المحسوسات فإن توظيف الحواس لبلوغ ذلك مطلوب ، ومن أفضل الأدوات المساعدة على ذلك في علوم الإعلام أداة التضاد الثنائي أو التقابل الثنائي ويروى أن عمر بن الخطاب قال : لا يعرف الإسلام من لا يعرف الجاهلية ، لأن إدراك الشيء يعرف في الغالب بنقيضه ويظهر جليا على مستوى المجسد .

أما عند التحليل وإصدار الأحكام وبحكم ارتباط ذلك بالقيم فنستعمل الموازين القيمية ، ولقد سعت بعض الدراسات الإعلامية لمحاولة توظيف التقابل الثنائي فيما اصطلح عليه بالقيم الإيجابية والقيم السلبية [3] وعلى فرض صحة هذا التقسيم فإن حضور سلوك مع آخر مناقض له في حيز معين يتركب

---

[1] - عزي عبد الرحمن: دراسات في نظرية الاتصال: نحو فكر إعلامي متميز ، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت،ط1 2003-ص /107.

[2] - نصير بوعلي وآخرون : قراءات في نظرية الحتمية القيمية ، مرجع سابق، ص/114.

[3] - التأمل الجلي في المفردات المنضوية تحت هذه التسمية يؤكد لنا أنها سلوكات تؤشر لحضور أو غياب القيم الأصيلة .

منه سلوكا جديدا ، مما لا يمكن معه من توظيف أداة التضاد الثنائي ،لأن هذا التعامل يكون فقط على مستوى التشخيص والوصف (المحسوس) إذ وزن الكفة اليمنى يعادل ويساوي كتلها المعبر عنها في الكفة الأخرى ، أما عند التحليل وإصدار الأحكام فيتطلب توظيف الموازين القيمية والتي ترتبط أساسا بسنن الهداية (المودعة في الوحي) ، فوجود بعض السلوكات المنافية للقيم الأصيلة في حيز أو فضاء واحد مع تكرار الحضور يدفع إلى الحكم العام على الفضاء المدروس .

إن اعتماد القيم كوحدة للفهم والتحليل يصب في مركزة جهود البشرية في صيرورة البحث عن الحقيقة ، ويدفع إلى القراءة الواحدة لثوابت المعرفة ، ويفتح المجال لتعميم العلم إلى عوالمه الحقيقية عالم الشهادة وعالم الغيب، ويربط بينها،ويعطي لكل أدوات المعرفة مجال عمله.